سفه الإعراض عن اتباع إبراهيم (ع) ووصيته ليعقوب ولأبنائهما

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

أما تفسيرها بحسب:

- ابن كثير:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

يقول تبارك وتعالى رَدًّا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل، إمام الحنفاء، فإنه جَرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يَدْع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك

سائر قومه، حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾الأنعام: ٧٨ - ٧٩ ، وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ ﴾الزخرف: ٢٦ - ٢٧ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ التوبة: ١١٤ ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ النحل: ١٢٠ - ١٢١ ، ولهذا وأمثاله قال تعالى:﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ ﴾؟ أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفي في الدنيا للهداية والرشاد، من حَداثة سنّه إلى أن اتخذه الله خليلا وهو في الآخرة من الصالحين السعداء فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملّته واتبع طُرُقَ الضلالة والغي، فأي سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾لقمان: ١٣ وقال أبو العالية وقتادة: نزلت في اليهود أحدثوا طريقًا ليست من عند الله وخالفوا ملَّة إبراهيم فيما أخذوه ، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾آل عمران: ٦٧ - ٦٨.

وقوله تعالى:﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا.

وقوله: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ ﴾ أي: وصى بهذه الملة وهي الإسلام لله أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله: ﴿ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم؛ كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ ﴾الزخرف: ٢٨، والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة؛ لأن البشارة وقعت بهما في قوله:

﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾هود: ٧١، وأيضًا فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾العنكبوت: ٢٧، وقال في الآية الأخرى:﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةً ﴾الأنبياء: ٧٢ ، وهذا يقتضي أنه وجد في حياته، وأيضًا فإنه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: (المسجد الحرام)، قلت: ثم أي؟ قال: (بيت المقدس). قلت: كم بينهما؟ قال: (أربعون سنة) الحديث. فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس -وإنما كان جدّده بعد خرابه وزخرفه -وبين إبراهيم أربعين سنة، وهذا مما أنكر على ابن حبان، فإن المدة بينهما تزيد على ألوف سنين، والله أعلم، وأيضًا فإن ذكر وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريبًا، وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين.

وقوله: ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ أي: أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه. فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه. وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وُفّق له ويسر عليه. ومن نوى صالحًا ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء، في الحديث الصحيح: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ بَاعٌ أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخله)) . لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل بعمل أهل النار في ما يبدو للناس، وقد قال الله تعالى:﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾الليل: ٥ - ١٠ .

﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ

مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

يقول تعالى محتجًّا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾، وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمي العم أبًا، نقله القرطبي؛ وقد استدل بهذه الآية من جعل الجد أبًا وحجب به الإخوة، كما هو قول الصديق حكاه البخاري عنه . وقوله: ﴿ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾أي: نُوَحِّدُه بالألوهية، ولا نشرك به شيئا غيره،﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾آل عمران: ٨٣، والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوّعت شرائعهم واخت لفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾الأنبياء: ٢٥ . وقال (ص): ((نحن مَعْشَرَ الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد)) .

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي: مضت،﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ أي: إنْ السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعهُ عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، ولهذا جاء في الأثر: ((من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)).

ـ الشيخ مغنية:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

اللغة: أصل السفه الاستخفاف والاستهتار، وكل من تصرف في نفسه أو ماله تصرفاً مضراً به، وخارجاً عما هو مألوف عند العقلاء فهو سفيه مستهتر، ولكن ضرر السفيه يختص به وحده. والاصطفاء الاختيار والانتقاء، والمراد بحضور الموت حضور دلائله وشواهده.

الإعراب: من يرغب استفهام، يتضمن النفي والاستنكار، أي لا أحد يرغب، والذي يدل على أن من معناها النفي وجود إلاّ بعدها، ﴿ مَن سَفِهَ ﴾من اسم موصول في محل رفع بدل كل من كل من الضمير المستتر في يرغب، ويجوز نصب من على الاستثناء.

ولفظ نفسه منصوب على التمييز، مثل فإن طبن لكم عن شيء نفساً، ويجوز أن يكون مفعولاً لسفه المخففة على أن يراد به سفه المشددة، أي صيّر نفسه سفيهاً، ﴿ إِذۡ حَضَرَ ﴾ إذ ظرف متعلق بشهداء، ولا ﴿ إِذۡ قَالَ ﴾ إذ متعلق بحضر، وما تعبدون (أما) استفهام مفعول لتعبدون، وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق بدل من آبائك، ويقال له بدل مفصل من مجمل.

المعنى: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ ﴾ هذا توبيخ من الله لليهود والنصارى ومشركي العرب الذين لم يؤمنوا بمحمد، وسر التوبيخ والتقريع أن اليهود يفتخرون بنسبتهم إلى إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، والنصارى يفتخرون بعيسى، وعيسى يتصل نسبه من جانب الأم بإسرائيل أيضاً، أما مشركو العرب فسائرهم عدنانيون يرجعون بنسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم، بالإضافة إلى أنهم نالوا الخير في الجاهلية ببركة البيت الذي بناه إبراهيم.. فالكل ـ

إذن ـ يفتخرون بإبراهيم، وملة إبراهيم، والمعلوم أن محمداً (ص) من نسل إبراهيم، وعلى ملة إبراهيم، وعليه فمن كفر بمحمد وملته فقد كفر بإبراهيم وملته.. وليس من شك أن من يكفر بمصدر عزه وافتخاره فهو سفيه، تماماً كمن تصرف في نفسه تصرفاً يودي به إلى الهلاك ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي جعلناه صافياً خالصاً من الأرجاس، على حد قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ الأحزاب: ٣٣.

﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ بديهة، لأنه في الدنيا كذلك فإن الإسلام يربط الآخرة بأعمال الدنيا، ولا يفصل بينهما أبداً، فمن كان في هذه مبصراً صالحاً، فهو في تلك كذلك، ومن كان في الدنيا أعمى شقياً فهو في الآخرة أعمى وأشقى.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وتسأل: متى طلب الله الإسلام من إبراهيم؟ هل طلبه منه قبل النبوة، أو بعدها؟ والأول غير ممكن، لأن الله لا يطلب بطريق الوحي ممن ليس بنبي، والثاني تحصيل حاصل، لأن الله لا ينزل الوحي على إنسان إلا بعد أن يسلم.

والجواب: إن قوله تعالى: ﴿ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ كناية عن إبراهيم هو من صفوة الصفوة وأنه أهل للنبوة والرسالة.. ذلك أنه استجاب لجميع أوامر الله ونواهيه، وقام بأعباء النبوة والرسالة على أتم الوجوه وأكملها، فالمقصود بالآية مجرد الثناء على إبراهيم، لإخلاصه وطاعته وانقياده، وفي الوقت نفسه توبيخ لليهود والنصارى والمشركين الذين يفتخرون بإبراهيم ثم يعصون ويتمردون على من جاء لإحياء ملة إبراهيم، ونشر سنته وعقيدته.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ الضمير في (بها) يعود إلى ملة إبراهيم.

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي أثبتوا على الإسلام حتى الموت، كي تبعثوا عليه، وتقابلوا الله به.

حق الولد على الوالد: وتشعر هذه الآية بأن الوالد مسؤول عن تربية ولده وإرشاده إلى دين الحق، قال الإمام زين العابدين (ع): «أما حق ولدك فأن تعلم

العلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنك مسؤول عنه من حسن الأدب، والدلالة على ربه عز وجل، والمعونة له على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه».

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾

حضره الموت معناه احتضر، ونزلت به أمارات الموت. قال صاحب مجمع البيان: إن اليهود زعموا أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية. فأبطل الله هذا الزعم بقوله لهم: إنكم لم تشهدوا يعقوب عند موته، فكيف تدعون عليه بالأباطيل؟ والحقيقة أن يعقوب قال لبنيه في تلك اللحظة: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾؟

وتسأل: إن (ما) تستعمل لغير العاقل، فكيف استعملت هنا في المعبود الحق؟

الجواب: إن الناس آنذاك كانوا يعبدون الأصنام فنزّل السؤال على معبود الناس لا على معبود الحق، وعليه تكون (ما) بمعنى أي شيء تعبدون؟

﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾.. وتسأل: إن يعقوب هو ابن إسحاق، وإسماعيل عمه أخو أبيه، فكيف صح إدخال إسماعيل مع الآباء؟

الجواب: إن العم بمنزلة الأب، لأنه أخوه، ويُعظم لما يُعظم، وفي الحديث الشريف أن رسول الله (ص) قال: «رُدّوا عليّ أبي» يعني عمه العباس.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ ﴾ هذه الآية تشير إلى مبدأ عام، وهو أن نتائج الأعمال وآثارها تعود غداً على العامل وحده، لا ينتفع بها من ينتسب إليه إن تكن خيراً، كما لا يتضرّر بها غيره إن تكن شراً، وقرّر الإسلام هذا المبدأ بأساليب شتى، منها الآية ١٦٤ من سورة الأنعام:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ الأنعام: ١٦٤

ومنها الآية ٣٩ من سورة النجم: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ النجم: ٣٩ . ومنها قول الرسول الأعظم (ص) لوحيدته فاطمة: يا فاطمة اعملي، ولا تقولي إني ابنة محمد، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً.. وأمثال ذلك.. والتبسط في هذا الموضوع إن

دل على شيء فإنما يدل على أننا حتى اليوم نجهل أوضح الواضحات، وأظهر البديهيات.

- السيد قطب:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

هذه هي ملّة إبراهيم الإسلام الخالص الصريح. والذي لا يرغَب عنها وينصرِف عنها إلاّ ظالم لنفسه، أو سفيه ومستهترٌ بها. فإبراهيم الذي اصطفاه ربه في الدنيا إماماً وشهد له في الآخرة بالصلاح.. اصطفاه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ ﴾ لم يتلكأ ولم يَرتّب ولم ينحرِف واستجاب فور تلقى الأمر ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ولقد ذكر كلّ من إبراهيم ويعقوب نبيّه بنعمة الله عليهم في اختياره الدين لهم: ﴿ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ فهو من اختيار الله فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه وأقلّ ما توجبه رعاية الله لهم، وفضل الله عليهم هو الشُكر على نعمة اختياره واصطفائه والحرص على ما اختاره لهم، والاجتهاد في ألا يتركوا هذه الأرض إلاّ وهذه الأمانة محفوظة منهم.

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ وها هي ذي الفرصة سانحة، فقد جاءهم الرسول الذي يدعوهم إلى الإسلام، وهو ثمرة الدعوة التي دعاها أبوهم إبراهيم.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ۙ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

إنّ هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة، قوي الإيحاء، عميق التأثير، ميت يحتضر فما هي القضية التي تشغل باله

في ساعة احتضار؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه؟ ما هي التركة التي يُريد أن يخلّفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فسلمها لهم في محضر، يُسجّل فيه كل التفصيلات؟ إنها العقيدة.. هي التركة وهي الذخر وهي القضية الكبرى، وهي الشغل الشاغل، وهي الأمر الجلّل الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته.

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله، وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها وهذه هي الأمانة والذُخر والتراث.

﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه إنهم يتسلمون التراث ويصونونه، إنهم يطمئنّون الوالد المحتضر يريحونه وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيّه مرعية في أبناء يعقوب، وكذلك هم ينصّون نصاً صريحاً على أنهم «مسلمون».

والقرآن يسأل بني إسرائيل: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾

فهذا هو الذي كان يشهد به الله، ويقرّره ويقطع به كل حجة لهم في التتويه والتضليل، ويقطع كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل!

وفي ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التي خلت والجيل الذي كانت تواجهه حيث لا مجال لصلة، ولا مجال لوراثة، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

فلكل حساب، ولكل طريق ولكل عنوان ولكل صفة أُولئك أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين، إن هذه الأعقاب ليست امتداداً لتلك الأسلاف هؤلاء حزب وأولئك حزب لهؤلاء راية ولأولئك راية، والتصوّر الإيماني في هذا غير التصوّر الجاهلي، فالتصوّر الجاهلي لا يفرّق بين جيل من الأمة وجيل، لأنّ الصلة فيه

هي صلة الجنس والنسب، أمّا التصوّر الإيماني فيفرق بين جيل مؤمن وجيل فاسق فليسا أمة واحدة، وليس بينهما صلة وقرابة أنهما أمتان مختلفتان في ميزان الله فهما مختلفتان في ميزان المؤمنين إنّ الأمّة في التصوّر الإيماني هي الجماعة التي تنسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض وليست هي الجماعة التي تُنسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة وهذا هو التصوّر اللائق بالإنسان الذي يستمدّ إنسانيته من نفحة الروح العلوية، لا في التصاقات الطين الأرضية.

- السيد فضل اللّه:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

وتبدأ مسيرة الرسالات الواحدة من إبراهيم، فليس هناك تناف بين طبيعة رسالة ورسالة، بل هو التنوّع في التفاصيل في النطاق الموحّد الذي تُمثّله كلمة الإسلام. فكل الرسالات السماوية التي جاءت من بعد إبراهيم تُعتبر خطوة متقدمة في طريق إبراهيم نحو الهدف الواحد، لأنّ الحياة لا بد من أن تخضع لله في كل مجالاتها وخطواتها، وتطلعاتها، ولا بد للإنسان من أن يخشع لله في قلبه وفي فكره وحياته، فيُسلم كل وجهه لله، فلا كلمة له أمام كلمة الله، ولا شريعة له أمام شريعة الله.

وفي ضوء ذلك نفهم، التقاء الأديان كلّها على القاعدة الأساسية في ملّة إبراهيم، التي تُمثّل الموقف الداخلي للإنسان المنفتح على الله في استسلام إيماني خاشع، ونكتشف أن معنى الإيمان بجميع الأنبياء في العقيدة الإسلامية، أنّهم يُمثّلون العقيدة

الواحدة في خط الإسلام الحق لله، فلا معنى للإيمان ببعضهم والكفر بالبعض الآخر ما دامت الرسالات واحدة في جميع الحالات.

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ التي ترتكز على التوحيد الخالص والإسلام الشامل لله المنفتح على كل قيم الروح، وخصال الخير، واستقامة الخط، وطهارة القلب، وصفاء السريرة.. والتي تلتقي مع كل الرسالات في خطوطها العامة، لأنّها أصل الرسالات، فكُل رسالة منفتحة على ملّته وكل نبي يستوحي منه، فهل يمكن أن يبتعد عنها ويعرض عن الالتزام بها؟!

﴿ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ من هؤلاء الجاهلين الذين لا يُميّزون بين الحُسن والقبيح والخير والشر، فينحرفون بها عن خط الاستقامة إلى خط الانحراف.

﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ نبياً ورسولاً وإماماً وداعياً إلى الحق، واخترناه من بين الناس لذلك كلّه، لتميزه عنهم في عقله وروحه واستقامته وإخلاصه لله، وهكذا أردنا له أن يملك الموقع القوي الذي يملك زمام الحياة في مسؤوليته الشاملة ليكون رسول الله إلى الإنسان ليخرجه من الظلمات إلى النور.

﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فهو في هذه الزمرة الطيّبة الطاهرة التي انطلقت في الدنيا لتجسد الصلاح في روحيتها وتفكيرها وسلوكها واستقامتها على خط الله، وقد تمنى وهو في الحياة أن يلحقه الله بهؤلاء لينال الدرجة العليا التي ينالونها، وليعيش القرب إلى الله الذي عاشوه وليبلغ النعيم الذي بلغوه. وهذا هو التعبير الكنائي عن صلاحه في الدنيا الذي يجعله من الصالحين في الآخرة، وقد ارتفع في هذه الدرجة حتى جعله الله خليلاً.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ﴾ ربما كان القول وحياً أو إلهاماً، وربما كان فكراً وشعوراً وإحساساً يتحسّس الإنسان فيه من داخل روحيته الذاتية وفكره الإيماني أن الله يريد منه أنّ يُسلّم أمره إليه، فلا يكون له كلمة أمام كلمته، ولا خطاً غير خطّه ولا قضاء إلا قضاؤه ولا منهجاً إلا منهجه، فإن ذلك من وحي الإيمان الصافي النقي، والعقل المنفتح على الحقيقة، الذي يسمع ـ من خلاله ـ أوامر الله ونواهيه ووحيه إليه، وقد

عُبّر في بعض الكلمات عن العقل بأنه «الرسول الباطني».

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فعاش الإسلام لله بكل عُمق الإيمان، وبكل استقامة الطريق، ووضوح المنهج وصفاء الشعور، وانفتاح الروح ولم يكن إسلامه إسلام الكلمة المنطلقة من اللسان البعيدة عن القلب، أو إسلام الرغبة والرهبة من دون قناعة، أو إسلام الشكل من غير مضمون، فذلك هو الإسلام الذي لا يعيش حركة الوجود في الذات.. إنه الصورة في الظاهر لا الحقيقة في الباطن، إنه الإسلام الكُلي لأن الله يُريد من الإنسان أن يُخلص له بكله، ويستغرق في عبوديته له حتى لا يتبقى لأحد منه شيء، حتى لنفسه، ليكون محياه لله ومماته لله.

ـ وهنا يردُ السؤال: هل كان الاصطفاء قد تمّ بعد أن أمره الله بأن يُسلم باعتبار أن كلمة إذ هي في موضع نصب باصطفيناه؟

قد يكون الأمر كذلك على أساس الجانب التعبيري، ولكن ذلك ليس ضرورياً، فربما كانت المسألة منطلقة من الإشارة إلى السبب في هذا الاصطفاء من خلال إخلاصه لله في إسلامه المُطلق له، لأن الله يختار لرسالته الإنسان الذي يعيش عمق الصفاء الروحي الذي يؤهله لاحتضان روح الرسالة بفكره، وكل كيانه وربما كان ذلك بداية للحديث عن حركته الرسالية التي ابتدأت من إحساسه الذاتي لتمتدّ في نبيه، ممّا يوحي بأنّه استطاع أن يجذّرها في الجيل الذي جاء بعده من خلال تجذّرها في مهمته الرسالية.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ فقد انطلقت هذه التجربة في حياة الجدّ في حديثه ومع نبيّه وفي حياة الحفيد في وصيّته لأولاده، في دلالة رسالته على أن الرسالة كانت كل اهتماماتهما الروحية، فلم يكتفيا بالجهاد في سبيلها في حياتهما، بل انطلقا ليدفعا بها للاستمرار في الجيل الجديد بعد وفاتهما، لأن الوصية تعبّر في مضمونها عن القلق النفسي الذي يشعر به الإنسان تجاه ما أوصى به ومن أوصى له.

﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ واختاره منهجاً للنجاة في الحياة ووسيلة

للسعادة في الآخرة في خلال برامجه التي تكفل لكم العيش الرغيد والسلامة المريحة وانفتاحه على معرفة الله وطاعته للوصول إلى رضوانه، وذلك من قاعدة واحدة وهي إسلام القلب والوجه والحياة كلها لله، ليلقي الإسلام بمعنى العبودية الحقة الخاضعة للألوهية المطلقة، فليكن هذا الدين ـ الإسلام ـ هو الخط المُستقيم الذي تتحركون فيه في كل حياتكم فلا تنحرفون عنه أو تتركوه إلى غيره مهما اشتدّت الضغوط واهتزّت الأرض من تحت أقدامكم وتنوّعت الإغراءات حتى نهاية حياتكم.

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ لتلتقوا بالله على خط الإسلام عندما يقوم الناس لرب العالمين.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ ﴾ أيها الناس، قال في مجمع البيان إن «أمّ» ها هنا منقطعة، وهي لا تجيء إلا وقد تقدمها كلام لأنها التي تكون بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام كأنه قيل: بل أكنتم شهداء ومعنى «أمّ» ها هنا الجحد، أي ما كنتم شهداء، وإنّما كان اللفظ على الاستفهام والمعنى على خلافه، لأن إخراجه فخرج الاستفهام أبلغ في الكلام وأشدّ مظاهره في الحجاج إذ يخرج الكلام مخرج التقرير بالحق فليزم الحجة أو الإنكار له فتظهر الفضيحة.

﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾واجتمع إليه بنوه الإثنا عشر وهم الأسباط.

﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ﴾ سائلاً سؤال الإنسان الذي يبدي لهم رغبته الأخيرة في سلوكهم مستقبلاً في الخط الذي بدأه أبوه النبي إبراهيم (ع) في إسلام الروح لله، وحمله كمسوؤلية رسالية يبلغه للناس كافة.

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ هل تتراجعون عن الخط المستقيم لتتبعوا مجتمعاتكم الوثنية، أم تستمرون في السير عليه لتنسجموا مع آبائكم وأجدادكم من الرسل؟ فكان الجواب الذي يبعث الاطمئنان في نفسه ليموت وهو قرير العين، باستمرار الخط الرسالي في التوحيد الخالص من بعده.

﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ فلن نشرك بعبادة غيره، ولن نؤمن بإله سواه، فهي العبادة الخالصة لله الواحد الأحد

التي تجعل الحياة في نطاق الإسلام، ليكون الإسلام هو الطابع الذي يطبع شخصيتهم في كل مجالاتهم العملية.

﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ في أقوالنا وأفعالنا وعلاقتنا ومواقفنا ومواقعنا، وفي جميع مجالات حياتنا العامة والخاصة.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ وذهبت مع التاريخ بعد أن عاشت تجاربها وقامت بمسؤولياتها وأدت رسالاتها، وتحرّكت في الدروب التي فتحتها أو كانت مفتوحة لها.

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ من نتائج أعمالها.

﴿ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ ممّا تحملون من مسؤوليتكم في كل التكاليف الموجّهة إليكم، والمهمات الموكلة إليكم في ساحات الخير والشر، والحق والباطل، وفي كل مجالات حركية الصراع مع الآخرين.

﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ لأن الجيل الجديد لا يتحمّل أوزار الجيل القديم ولا علاقة له بحسناته، لأن التجربة السلبية أو الإيجابية مختصة به من خلال حركة إرادته الذاتية وفي ضوء هذا لا معنى للقول بأنّ الأبناء يتحملون المسؤولية السلبية تجاه ما قام به الآباء في السيئات. وربما يُطرح سؤال: لماذا لم يتحدّث الله عن مسؤولية الآباء عن عمل الأبناء؟

والجواب: إن الخطاب هو للأبناء الذين يراد لهم أن ينفتحوا على التاريخ كعبرة يعتبرون بها، لا كمسؤولية يتحملونها مع ملاحظة أخرى وهي أن الآباء قد يتحملون مسؤولية الأبناء عندما يتحركون ببعض الأوضاع التربوية أو البرامج التعليمية التي قد تؤدي إلى ضلال الأبناء بنحو التسبيب العملي.

ـ الطبري:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾، وأي الناس يزهد في ملة إبراهيم، ويتركها رغبة عنها إلى غيرها؟ وإنّما عنى الله بذلك اليهود والنصارى، لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية على الإسلام. لأن «ملة إبراهيم» هي الحنيفية المسلمة، كما قال تعالى ذكره: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ آل عمران: ٦٧ ، فقال تعالى ذكره لهم: ومن يزهد عن ملة إبراهيم الحنيفية المُسلمة إلاّ من سفه نفسه.

ويعني بقوله: ﴿ ٱصْطَفَيْنَٰهُ ﴾: اخترناه واجتبيناه للخلّة، ونصيره في الدنيا لمن بعده إماماً. وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خالف إبراهيم فيما سن لمن بعده، فهو لله مخالف، وإعلام منه خلقه أن من خالف ما جاء به محمد (ص)، فهو لإبراهيم مخالف. وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر أنه اصطفاه لخلته، وجعله للناس إماماً، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة. ففي ذلك أوضح البيان من الله تعالى ذكره عن أن من خالفه فهو لله عدو لمخالفته الإمام الذي نصبه الله لعباده.

﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، وإن إبراهيم في الدار الآخرة لمن الصالحين. و»الصالح» من بني آدم: هو المؤدي حقوق الله عليه. فأخبر تعالى ذكره عن إبراهيم خليله، أنه في الدنيا صفي، وفي الآخرة ولي، وأنه وارد موارد أوليائه الموفين بعهده.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ ﴾ ، إذ قال له ربه: أخلص لي العبادة، واخضع لي بالطاعة، وقد دللنا في ما مضى على معنى «الإسلام» في كلام العرب، فأغنى عن إعادته.

وأما معنى قوله: ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإنه يعني تعالى ذكره، قال إبراهيم مُجيبا لربه: خضعت بالطاعة، وأخلصت العبادة، لمالك جميع الخلائق ومُدبرها دون غيره.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ ﴾، ووصى بهذه الكلمة. عنى بالكلمة قوله ﴿ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، وهي الإسلام الذي أمر به نبيه (ص)، وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله، وخضوع القلب والجوارح له.

ويعني بقوله: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ ﴾، عهد إليهم بذلك وأمرهم به. وأما قوله: ﴿ وَيَعۡقُوبُ ﴾، فإنه يعني: ووصى بذلك أيضا يعقوبُ بنيه.

﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾، إن الله اختار لكم هذا الدين الذي عهد إليكم فيه، واجتباه لكم. وإنما أدخل»الألف واللام» في»الدين»، لأن الذين خوطبوا من ولدهما وبنيهما بذلك، كانوا قد عرفوه بوصيتهما إياهم به، وعهدهما إليهم فيه، ثم قالا لهم بعد أن عرفاه: إن الله اصطفى لكم هذا الدين الذي قد عهد إليكم فيه، فاتقوا الله أن تموتوا إلا وأنتم عليه.

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾

إن قال لنا قائل: أوَ إلَى بني آدمَ الموتُ والحياةُ، فينهى أحدُهم أن يموت إلاّ على حالة دون حالة؟ قيل له: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننتَ. وإنما معنى﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ ، أي: فلا تفارقوا هذا الدين وهو الإسلام أيام حياتكم. وذلك أن أحدا لا يدري متى تأتيه منيتُه، فلذلك قالا لهم:»فلا تموتن إلا وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم فتموتوا وربكم ساخط عليكم فتهلكوا.

﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِى

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

وتأويل الكلام: أكنتم يا معشر اليهود والنصارى، المكذبين بمحمد (ص)، الجاحدين نبوّته، حضورَ يعقوبَ وشهودَه إذ حضره الموت، أي إنكم لم تحضروا ذلك، فلا تدعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل، وتَنحلوهم اليهوديةَ والنصرانية، فإني ابتعثت خليلي إبراهيم وولده إسحاق وإسماعيل وذريتهم بالحنيفية المسلمة، وبذلك وصَّوْا بنيهم، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم. فلو حضرتموهم فسمعتم منهم، علمتم أنهم على غير ما نحلتموهم من الأديان والملل من بعدهم.

وهذه آيات نزلت، تكذيبا من الله تعالى لليهود والنصارى في دعواهم في إبراهيم وولده يعقوب: أنهم كانوا على ملّتهم، فقال لهم في هذه الآية:﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، فتعلموا ما قال لولده وقال له ولده؟ ثم أعلمهم ما قال لهم وما قالوا له. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وقيل: إنما قدم ذكر إسماعيل على إسحاق لأن إسماعيل كان أسنّ من إسحاق.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

يعني تعالى ذكره. بقوله:﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وولدهم. يقول لليهود والنصارى: يا معشر اليهود والنصارى، دَعوا ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهله، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية، فتضيفونها إليهم، فإنهم أمة ويعني: بالأمة في هذا الموضع: الجماعةَ والقرنَ من الناس قد خلت: مضت لسبيلها.

ثم قال تعالى ذكره لليهود والنصارى: إن لمن نحلتموه ضلالكم وكفركم الذي أنتم عليه من أنبيائي ورسلي، ما كسب والهاء والألف في قوله:﴿لَهَا﴾، عائدة إن شئت على «تلك»، وإن شئت على»الأمة».

ويعني بقوله:﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، أي ما عملت من خير، ولكم يا معشر اليهود

والنصارى مثل ذلك ما عملتم، ولا تؤاخذون أنتم أيها الناحلون ما نحلتموهم من الملل فتسألوا عما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وولدهم يعملون. فيكسبون من خير وشر، لأن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت. فدعوا انتحالهم وانتحال مللهم، فإن الدعاوَى غيرُ مغنيتكم عند الله، وإنما يغني عنكم عنده ما سلف لكم من صالح أعمالكم، إن كنتم عملتموها وقدمتموها.

ـ الطبرسي:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. البقرة: ١٣٠

المعنى : لما بين سبحانه قصة إبراهيم وأن ملته ملة محمد عقبه بذكر الحدث على اتباعها فقال: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾.

أي: لا يترك دين إبراهيم وشريعته إلاَّ من أهلك نفسه وأوبقها. وقيل: أضل نفسه عن الحسن، وقيل: جهل قدره لأن من جهل خالقه فهو جاهل بنفسه عن الأصم، وقيل: جهل نفسه بما فيها من الآيات الدالة على أن لها صانعاً ليس كمثله شيء عن أبي مسلم. وقوله: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: اخترناه بالرسالة واجتبيناه ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي: من الفائزين عن الزجاج، وقيل: معناه لمع الصالحين أي: مع آبائه الأنبياء في الجنة عن ابن عباس، وقيل: إنما خص الآخرة بالذكر، وإنْ كان في الدنيا كذلك؛ لأن المعنى من الذين يستوجبون على الله سبحانه الكرامة وحسن الثواب فلما كان خلوص الثواب في الآخرة دون الدنيا وصفه فيها بما ينبىء عن ذلك. وفي قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾.

دلالة على أن ملة إبراهيم هي ملة نبينا (ص) لأن ملة إبراهيم داخلة في ملة محمد مع زيادات في ملة محمد فبين أن الذين يرغبون من الكفار عن ملة محمد التي هي ملة إبراهيم قد سفهوا أنفسهم، وهذا معنى قول قتادة والربيع، ويدل

عليه قوله: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾الحج: ٧٨ .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾البقرة: ١٣١.

المعنى : هذا متصل بقوله: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ ﴾ ولقد اصطفيناه وموضع ﴿ إِذْ ﴾ نصب باصطفينا، وتقديره ولقد اصطفيناه حين قال له ربه أسلم، واختلف في أنه متى قيل له ذلك فقال الحسن: كان هذا حين أفلت الشمس ورأى إبراهيم تلك الآيات والأدلة فاستدل بها على وحدانية الله سبحانه: وقال: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾الأنعام: ٧٨ - ٧٩ الآية. وأنه أسلم حينئذ وهذا يدل على أنه كان ذلك قبل النبوة، وأنه قال له ذلك إلهاماً استدعاء منه إلى الإسلام فأسلم حينئذ لما وضح له طريق الاستدلال بما رأى من الآيات، ولا يصح أن يوحي الله إليه قبل إسلامه بأنه نبي الله ؛ لأن النبوة حال إجلال وإعظام ولا يكون ذلك قبل الإسلام. وقال ابن عباس: إنما قال ذلك إبراهيم (ع) حين خرج من السرب ، وقيل: إنما قال ذلك بعد النبوة ومعنى ﴿ أَسْلِمْ ﴾.

استقم على الإسلام واثبت على التوحيد، كقوله سبحانه:﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾محمد: ١٩ ، وقيل: إنْ معنى أسلم أخلص دينك بالتوحيد، وقوله: ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. أي: أخلصت الدين لله رب العالمين.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

المعنى : لما بين عزَّ اسمه دعاء إبراهيم (ع) لذريته وحكم بالسفه على من رغب عن ملته ذكر اهتمامه بأمر الدين وعهده به إلى نبيه في وصيته فقال:﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ ﴾ أي: بالملة أو بالكلمة التي هي قوله أسلمت لرب العالمين، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾الزخرف: ٢٨ وقيل: بكلمة الإخلاص وهي لا إله إلاَّ الله ﴿ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ ﴾إنما خص البنين لأن إشفاقه عليهم أكثر وهم بقبول وصيته

أجدر وإلاَّ فمن المعلوم أنه كان يدعو جميع الأنام إلى الإسلام ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ وهو ابن إسحاق وإنما سمي يعقوب لأنه وعيصا كانا توأمين فتقدم عيص وخرج يعقوب على إثره أخذا بعقبه عن ابن عباس، والمعنى ووصى يعقوب بنيه الاثني عشر وهم الأسباط ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أي: فقالا جميعاً يا بني إنْ الله اختار لكم دين الإسلام ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي: لا تتركوا الإسلام فيصادفكم الموت على تركه أو لا تتعرضوا للموت على ترك الإسلام بفعل الكفر وقال الزجاج: معناه الزموا الإسلام فإذا أدرككم الموت صادفكم مسلمين، وفي هذه الآية دلالة على الترغيب في الوصية عند الموت، وأنه ينبغي أن يوصي الإنسان من يلي أمرهم بتقوى الله ولزوم الدين والطاعة.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

المعنى: خاطب سبحانه أهل الكتاب فقال : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ ﴾ أي: ما كنتم حضوراً ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾

وما كنتم حضوراً ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ ومعناه: أنكم لم تحضروا ذلك فلا تدعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل بأن تنسبوهم إلى اليهودية والنصرانية فإني ما بعثتهم إلاَّ بالحنيفية، وذلك أن اليهود قالوا أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية فرد الله تعالى عليهم قولهم، وإنما قال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ولم يقل من تعبدون ، لأن الناس كانوا يعبدون الأصنام فقال أي الأشياء تعبدون من بعدي ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ وإنما قدم ذكر إسماعيل على إسحاق لأنه كان أكبر منه وإسماعيل كان عم يعقوب وجعله أباً له، لأن العرب تسمي العم أباً كما تسمي الجد أباً وذلك لأنه يجب تعظيمهما كتعظيم الأب، ولهذا قال النبي (ص) ردوا علي أبي يعني

العباس عمه ﴿إِلَهاً وَحِداً ونحْنُ لَهُ مُسلِمُونَ﴾ أي: مذعنون مقرون بالعبودية، وقيل: خاضعون منقادون مستسلمون لأمره ونهيه قولاً وعقداً، وقيل: داخلون في الإسلام يدل عليه قوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩ .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

المعنى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي: جماعة قد مضت يعني إبراهيم وأولاده ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ أي: ما عملت من طاعة أو معصية ﴿ وَلَكُم ﴾ يا معشر اليهود والنصارى ﴿ مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ أي: ما عملتم من طاعة أو معصية ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: لا يقال لكم لم عملوا كذا وكذا على جهة المطالبة لكم بما يلزمهم من أجل أعمالهم كما لا يقال لهم لم عملتم أنتم كذا وكذا وإنما يطالب كل إنسان بعمله دون عمل غيره كما قال سبحانه ولا تزر وازرة وزر أخرى وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة أن الأبناء مؤاخذون بذنوب الآباء وإِنْ ذنوب المسلمين تحمل على الكفار، لأن الله تعالى نفى ذلك .

. القرطبي:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ (من) استفهام في موضع رفع بالابتداء. و(يرغب) صلة (من). ﴿ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ في موضع الخبر. وهو تقريع وتوبيخ وقع فيه معنى النفي؛ أي وما يرغب، قال النحاس. والمعنى: يزهد فيها وينأى بنفسه عنها؛ أي عن الملة وهي الدين والشرع. ﴿ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ قال قتادة: هم اليهود والنصارى، رغبوا عن ملة إبراهيم واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله تعالى. قال الزجاج: (سفه) بمعنى جهل؛ أي جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها.

وقال أبو عبيدة: المعنى أهلك نفسه. وحكى ثعلب والمبرد أن (سفه) بكسر الفاء يتعدى كسَفّه بفتح الفاء وشدها.

وقد استدل بهذه الآية من قال: إن شريعة إبراهيم شريعة لنا إلا ما نسخ منها؛ وهذا كقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الحج: ٧٨ ، ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ النحل: ١٢٣ . وسيأتي بيانه. قوله تعالى:﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي اخترناه للرسالة فجعلناه صافياً من الأدناس والأصل في (اصطفيناه) اصتفيناه، أبدلت التاء طاء لتناسبها مع الصاد في الإطباق. واللفظ مشتق من الصّفوة ومعناه تخيّر الأصفى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الصالح في الآخرة هو الفائز. ثم قيل: كيف جاز تقديم (في الآخرة) وهو داخل في الصلة، قال النحاس: فالجواب أنه ليس التقدير إنه لمن الصالحين في الآخرة، فتكون الصلة قد تقدمت، ولأهل العربية فيه ثلاثة أقوال: منها أن يكون المعنى وإنه صالح في الآخرة، ثم حذف. وقيل: (في الآخرة) متعلّق بمصدر محذوف؛ أي صلاحه في الآخرة. والقول الثالث: إن (الصالحين) ليس بمعنى الذين صلحوا، ولكنه اسم قائم بنفسه؛ كما يقال الرجل والغلام.

قلت: وقول رابع إن المعنى وإنه في عمل الآخرة لمن الصالحين؛ فالكلام على حذف مضاف. وقال الحسين بن الفضل: في الكلام تقديم وتأخير، مجازه ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين. وروى حجّاج بن حجاج. وهو حجاج الأسود، وهو أيضاً حجاج الأحول المعروف بزقّ العسل. قال: سمعت معاوية بن قرة يقول: اللهم إن الصالحين أنت أصلحتهم ورزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم، اللهم كما أصلحتهم فأصلحنا، وكما رزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم فأرزقنا أن نعمل بطاعتك وارض عنا.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ أي اصطفيناه إذ قال له ربه أسلم وكان هذا القول من الله تعالى حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس. قال ابن كيسان

والكلبي: أي أخلص دينك لله بالتوحيد. وقيل: اخضع واخشع. وقال ابن عباس: إنما قال له ذلك حين خرج من السّرَب، على ما يأتي ذكره في (الأنعام). والإسلام هنا على أتم وجوهه. والإسلام في كلام العرب: الخضوع والانقياد للمستسلم. وليس كل إسلام إيماناً، وكل إيمان إسلام، لأن من آمن بالله فقد استسلم وانقاد لله. وليس كل من أسلم آمن بالله، لأنه قد يتكلم فزعاً من السيف، ولا يكون ذلك إيماناً، خلافاً للقدرية والخوارج حيث قالوا: إن الإسلام هو الإيمان، فكل مؤمن مسلم، وكل مسلم مؤمن لقوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩ فدل على أن الإسلام هو الدين، وأن من ليس بمسلم فليس بمؤمن. ودليلنا قوله تعالى:﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾الحجرات: ١٤ الآية. فأخبر الله تعالى أنه ليس كل من أسلم مؤمناً، فدلّ على أنه ليس كل مسلم مؤمناً؛ وقال (ص) لسعد بن أبي وقّاص لما قال له: أعطِ فلاناً فإنه مؤمن؛ فقال النبي (ص): «أوَمسلم» الحديث. خرجه مسلم، فدل على أن الإيمان ليس الإسلام، فإن الإيمان باطن، والإسلام ظاهر، وهذا بيّن. وقد يطلق الإيمان، بمعنى الإسلام، والإسلام ويراد به الإيمان، للزوم أحدهما الآخر وصدوره عنه؛ كالإسلام الذي هو ثمرة الإيمان ودلالة على صحته، فاعلمه وبالله التوفيق.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ ﴾ أي بالملة؛ وقيل: بالكلمة التي هي قوله: ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وهو أصوب؛ لأنه أقرب مذكور، أي قولوا أسلمنا. ووصّى وأوصى لغتان لقريش وغيرهم بمعنى، مثل كرّمنا وأكرمنا؛ وقرئ بهما. وفي مصحف عبدالله (ووصّى)، وفي مصحف عثمان (وأوصى) وهي قراءة أهل المدينة والشام. الباقون (ووصى) وفيه معنى التكثير. و﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ رفع بفعله، ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ عطف عليه؛ وقيل: هو مقطوع مستأنف، والمعنى، وأوصى يعقوب وقال يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين، فيكون إبراهيم قد وصى بنيه، ثم وصّى بعده يعقوب بنيه.

وبنو إبراهيم: إسماعيل، وأمه هاجر القبطية، وهو أكبر ولده؛ نقله إبراهيم إلى مكة وهو رضيع. وقيل: كان له سنتان. وقيل: كان له أربع عشرة سنة. والأول أصح؛ على ما يأتي في سورة (إبراهيم) بيانه إن شاء الله تعالى. وولد قبل أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة، ومات وله مائة وسبع وثلاثون سنة. وقيل: مائة وثلاثون. وكان سنّه لما مات أبوه إبراهيم عليهما السلام تسعاً وثمانين سنة؛ وهو الذبيح في قول. وإسحاق أمه سارة، وهو الذبيح في قول آخر، وهو الأصح، على ما يأتي بيانه في سورة (والصافات) إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ﴾ معناه أن يا بنيّ، وكذلك هو في قراءة أبيّ وابن مسعود والضحاك. قال الفراء: ألغيت أن لأن التوصية كالقول، وكل كلام يرجع إلى القول جاز فيه دخول أن وجاز فيه إلغاؤها. قال: وقول النحويين إما أراد (أن) فألغيت ليس بشيء. النحاس: (يا بنيّ) نداء مضاف، وهذه ياء النفس لا يجوز هنا إلا فتحها؛ لأنها لو سكنت لالتقى ساكنان. ﴿لَكُمُ الدِّينَ﴾ أي الإسلام؛ والألف واللام في (الدين) للعهد؛ لأنهم قد كانوا عرفوه. ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ إيجاز بليغ.

والمعنى: الزموا الإسلام وداوموا عليه ولا تفارقوه حتى تموتوا. فأتى بلفظ موجز يتضمن المقصود، ويتضمن وعظاً وتذكيراً بالموت؛ وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدري متى؛ فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجه الخطاب من وقت الأمر دائباً لازماً. و(لا) نهي (تموتن) في موضع جزم بالنهي، أكد بالنون الثقيلة، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين. ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال؛ أي محسنون بربكم الظن، وقيل مخلصون، وقيل مفوّضون، وقيل مؤمنون.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ (شهداء) خبر كان، ولم يصرف لأن فيه ألف

التأنيث؛ و\دخلت لتأنيث الجماعة كما تدخل الهاء. والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم ما لم يوصِ به نبيه، وأنهم على اليهودية والنصرانية؛ فردّ الله عليهم قولهم وكذبهم، وقال لهم على جهة التوبيخ: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدّعون عن علم؛ أي لم تشهدوا، بل أنتم تفترون، و(أم) بمعنى بل؛ أي بل أشهِد أسلافكم يعقوب. والعامل في (إذ) الأولى معنى الشهادة، و(إذ) الثانية بدل من الأولى. و(شهداء) جمع شاهد أي حاضر. ومعنى ﴿ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي مقدماته وأسبابه؛ وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئاً. وعبّر عن المعبود بـ(ما) ولم يقل من؛ لأنه أراد أن يختبرهم؛ ولو قال (من) لكان مقصوده أن ينظر من لهم الاهتداء منهم؛ وإما أراد تجربتهم فقال (ما). وأيضاً فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والحجارة، فاستفهم عما يعبدون من هذه. ومعنى ﴿ مِنۢ بَعْدِى ﴾ أي من بعد موتي. وحكي أن يعقوب حين خيّر كما تُخيّر الأنبياء اختار الموت وقال: أمهلوني حتى أوصي بنيّ وأهلي، فجمعهم وقال لهم؛ فاهتدوا وقالوا: ي من بعد موتي. ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ ﴾ فأروه ثبوتهم على الدين ومعرفتهم بالله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ ﴿ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ في موضع خفض على البدل، ولم تتصرف لأنها أعجمية، قال الكسائي: وإن شئت صرفت (إسحاق) وجعلته من السّحق، وصرفت (يعقوب) وجعلته من الطير. وسمى الله كل واحد من العم والجد أباً، وبدأ بذكر الجد ثم إسماعيل العم لأنه أكبر من إسحاق. و(إلهاً) بدل من (إلهك) بدل النكرة من المعرفة؛ وكرره لفائدة الصفة بالوحدانية. وقيل: (إلهاً) حال.

قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ ابتداء وخبر، ويحتمل أن يكون في موضع الحال، والعامل (نعبد).

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟

﴿ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ (تلك) مبتدأ، و(أمة) خبر ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ نعت لأمة، وإن شئت كانت خبر المبتدأ، وتكون (أمة) بدلاً من (تلك). ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ (ما) في موضع رفع بالابتداء أو بالصفة على قول الكوفيين. ﴿ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ مثله، يريد من خير وشر. وفي هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب؛ وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك، إن كان خيراً فبفضله وإن كان شراً فبعدله، وهذا مذهب أهل السنة، والآي في القرآن بهذا المعنى كثيرة. فالعبد مكتسب لأفعاله، على معنى أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل، يدرك فيها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلاً؛ وذلك التمكن هو مناط التكليف. وقال الجبرية بنفي اكتساب العبد، وإنه كالنبات الذي تصرفه الرياح. وقالت القدرية والمعتزلة خلاف هذين القولين، وإن العبد يخلق أفعاله.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنب أحد؛ مثل قوله تعالى:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾الأنعام: ١٦٤ أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى وسيأتي.

ـ الشيرازي:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

الآيات السابقة ألقت الضوء على جوانب من شخصية إبراهيم(ع)، فتحدثت عن بعض خدماته وطلباته الشاملة للجوانب المادية والمعنوية.

من مجموع ما مرّ نفهم أنْ الله سبحانه شاء أنْ يكون هذا النّبي، شيخ الموحدين

وقدوة الرساليين، على مرّ العصور.

لذلك تقول الآية الأُولى من آيات بحثنا هذا: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾؟!

أليس من السفاهة أنْ يعرض الإنسان عن مدرسة الطهر والنقاء والفطرة والعقل وسعادة الدنيا والآخرة، ويتجه إلى طريق الشرك والكفر والفساد وضياع العقل والإنحراف عن الفطرة وفقدان الدين والدنيا؟!

ثم تضيف الآية: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

نعم، إبراهيم(ع) اصطفاه الله في الدنيا ليكون ((الأُسوة)) و((القدوة)) للصالحين.

الآية التالية تؤكد على صفة أُخرى من صفات إبراهيم التي هي الواقع أساس بقية صفاته العظيمة وتقول: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

هذا الإنسان المتحرر من الإنشدادات الوضيعة يسارع إلى التسليم التام حال سماعه نداء ربّه: ((أسلم))، ولا يتوانى في رفض كل أوهام زمانه القائمة على عبادة النجوم والشمس والقمر، فيتركها بعد أن رآها محكومة بالقوانين التي تسود الخليقة ويقول: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ٧٩.

مرّ بنا في الآيات السابقة أنْ إبراهيم وإسماعيل(ع) بعد بناء الكعبة طلبا من الله سبحانه أنْ يتقبل أعمالهما، ثم بعد ذلك طلباً أنْ يمنّ عليهما الله بنعمة التسليم لوجهه الكريم: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ ومثل هذا طلباه لذريّتهما: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾.

ذلك لأن الخطوة الأُولى في سموّ الشخصية الإنسانية الطهر والإخلاص، ومن هنا أسلم إبراهيم(ع) وجهه لربّه دون سواه، ولذلك عرف هو ودينه بهذا العنوان.

حياة إبراهيم(ع) بأجمعها كانت مفعمة بأعمال جسيمة نادرة، نضاله المرير

ضد المشركين، صموده الكبير في قلب النيران، هذا الصمود الذي أثار إعجاب نمرود الطاغية نفسه حيث راح يردد دون وعي: ((مَنِ اتَّخَذَ إِلهاً فَلْيَتَّخِذْ إِلهاً مِثْلَ إِلهِ إِبْرَاهِيمَ)).

وكذلك إسكان الزوج والطفل الرضيع في تلك الأرض الجافة القاحلة... والمقدسة، وبناء الكعبة، وتقديم الولد على مذبح التضحية والفداء استجابة لأمر الله تعالى... كل واحدة من هذه الأعمال قمة من سلسلة قمم حياة إبراهيم (ع).

ووصية إبراهيم بنيه في أواخر أيّام حياته تجسيد آخر لهذه الحياة الشامخة: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ ﴾ ... فكل من إبراهيم ويعقوب وصّيا أَبْنَاءهُما بالقول: ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾.

لعلّ القرآن الكريم، بنقله وصية إبراهيم، يريد أنْ يقول للإنسان إنه مسؤول عن مستقبل أبنائه، عليه أنْ يهتم بمستقبلهم المعنوي قبل أنْ يهتم بمستقبلهم المادي.

يعقوب كإبراهيم وصّى أيضاً أبناءه، بنفس هذه الوصايا، وأكد لأبنائه أنْ رمز نجاحهم يتلخص في جملة واحدة، هي التسليم لربّ العالمين.

ربّما يعود ذكر اسم يعقوب هنا من بين سائر الأنبياء، إلى أنْ اليهود والنصارى كانوا يعتقدون بانتسابهم إلى يعقوب بشكل من الأشكال، فأرادت الآية أنْ توضح لهم أنْ خط الشرك الذي يسلكونه لا يتناسب مع منهج يعقوب، وهو منهج التسليم المحض لربّ العالمين.

﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

سبب النّزول:

كان جمع من اليهود يعتقدون أنْ يعقوب عندما حضرته الوفاة أوصى بنيه أن

يعتنقوا اليهودية (بتحريفاتها السائدة خلال عصر البعثة المباركة)، والله سبحانه أنزل هذه الآية.

كما رأينا في سبب النّزول، وظاهر الآية يدل على ذلك أيضاً، كان جمع من منكري الإسلام ينسبون ما لا ينبغي نسبته إلى النّبي يعقوب، والقرآن يرد عليهم بالقول: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾؟!

هذا الذي نسبوه إليه ليس بصحيح، بل الذي حدث آنذاك ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾؟

في الجواب ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

أجل فإنّ يعقوب لم يوصِ أبناءه بشيء غير التوحيد والتسليم لربّ العالمين والذي هو الأساس لبرنامج الأنبياء.

من الآية يبدو أنْ قلقاً ساور يعقوب لدن أن حضرته الوفاة بشأن مستقبل أبنائه، وعبّر عن قلقه هذه متسائلاً: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾؟ وإنما قال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ... ﴾ ولم يقل ((مَنْ تَعْبُدُونَ ...)) لتلوث البيئة الإجتماعية آنذاك بالشرك والوثنية، أي بعبادة الأشياء من دون الله. فأراد يعقوب أنْ يفهم ما في قرارة نفوس أبنائه من ميول واتجاهات، وبعد أنْ استمع الجواب اطمأنت نفسه.

ويلفت النظر هنا أنْ إسماعيل لم يكن أباً ليعقوب ولا جدّه، بل عمّه، بينما الآية استعملت كلمة ((آباء))، ويتضح من ذلك أنْ كلمة ((الأب)) تطلق أيضاً على ((العم)) توسعاً، ومن هنا نقول بالنسبة لآزر، الذي ذكره القرآن باعتباره والد إبراهيم، أنه لا يمنع أنْ يكون عمّ إبراهيم لا والده.

آخر آية في بحثنا، تجيب على توهّم آخر من توهمات اليهود، فكثير من هؤلاء كانوا يستندون إلى مفاخر الآباء والأجداد وقرب منزلة أسلافهم من الله تعالى، فلا يرون بأساً في انحرافهم هم ظانين أنهم ناجون بوسيلة أُولئك الأسلاف.

يقول القرآن: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

وبذلك أرادت الآية أنْ توجّه أنظار هؤلاء إلى أعمالهم وسلوكهم وأفكارهم، وتصرفهم عن الإنغماس في الإفتخار بالماضين.

هذه الآية ــ وإنَّ اتجهت في الخطاب إلى فئة اليهود وأهل الكتاب في عصر البعثة ــ تخاطبنا نحن المسلمين أيضاً، وتطرح أمامنا مبدأ:

إنَّ الفتى مَنْ يقول ها أناذا ليس الفَتَى مَنْ يقولُ كان أبي

ـ الفخر الرازي:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

اعلم أن الله تعالى بعد أن ذكر أمر إبراهيم (عليه السلام) وما أجراه على يده من شرائف شرائعه التي ابتلاه بها، ومن بناء بيته وأمره بحج عباد الله إليه وما جبله الله تعالى عليه من الحرص على مصالح عباده ودعائه بالخير لهم، وغير ذلك من الأمور التي سلف في هذه الآية السالفة عجب الناس فقال: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ والإيمان بما أتى من شرائعه فكان في ذلك توبيخ اليهود والنصارى ومشركي العرب لأن اليهود إنما يفتخرون به ويوصلون بالوصلة التي بينهم وبينه من نسب إسرائيل، والنصارى فافتخارهم ليس بعيسى وهو منتسب من جانب الأم إلى إسرائيل، وأما قريش فإنهم إنما نالوا كل خير في الجاهلية بالبيت الذي بناه فصاروا لذلك يدعون إلى كتاب الله، وسائر العرب وهم العدنانيون فمرجعهم إلى إسماعيل وهم يفتخرون على القحطانيين بإسماعيل بما أعطاه الله تعالى من النبوة، فرجع عند التحقيق افتخار الكل بإبراهيم عليه السلام، ولما ثبت أن إبراهيم عليه السلام هو الذي طلب من الله تعالى بعثة هذا الرسول في آخر الزمان وهو الذي تضرع إلى الله تعالى في تحصيل هذا المقصود، فالعجب ممن أعظم مفاخره وفضائله الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام، ثم إنه لا يؤمن بالرسول الذي هو دعوة إبراهيم (عليه

السلام) ومطلوبه بالتضرع لا شك أن هذا مما يستحق أن يتعجب منه.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

اعلم أن هذا النوع الخامس من الأمور التي حكاها الله عن إبراهيم (عليه السلام)، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: موضع ﴿ إِذْ ﴾ نصب وفي عامله وجهان. الوجه الأول: أنه نصب باصطفيناه، أي اصطفيناه في الوقت الذي قال له ربه أسلم، فكأنه تعالى ذكر الاصطفاء ثم عقبه بذكر سبب الاصطفاء، فكأنه لما أسلم نفسه لعبادة الله تعالى وخضع لها وانقاد علم تعالى من حاله أنه لا يتغير على الأوقات وأنه مستمر على هذه الطريقة، وهو مع ذلك مطهر من كل الذنوب، فعند ذلك اختاره للرسالة واختصه بها لأنه تعالى لا يختار للرسالة إلاّ من هذا حاله في البدء والعاقبة، فإسلامه لله تعالى وحسن إجابته منطوق به، فإن قيل قوله: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ ﴾ إخبار عن النفس وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ﴾ إخبار عن المغايبة فكيف يعقل أن يكون هذا النظم واحداً؟ قلنا:هذا من باب الالتفات الذي ذكرناه مراراً.الثاني: أنه نصب باضمار أذكر كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت ليعلم أنه المصطفي الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن الله تعالى متى قال له أسلم؟ ومنشأ الإشكال أنه إنما يقال له: أسلم في زمان لا يكون مسلماً فيه، فهل كان إبراهيم (عليه السلام) غير مسلم في بعض الأزمنة ليقال له في ذلك الزمان أسلم؟ فالأكثرون على أن الله تعالى إنما قال ذلك قبل النبوة وقبل البلوغ، وذلك عند استدلاله بالكوكب والقمر والشمس، واطلاعه على أمارات الحدوث فيها، وإحاطته بافتقارها إلى مدبر يخالفها في الجسمية وأمارات الحدوث، فلما عرف ربه قال له تعالى: ﴿ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لأنه لا يجوز أن يقول له ذلك قبل أن عرف ربه ويحتمل أيضاً أن يكون قوله: ﴿ أَسْلِمْ ﴾ كان قبل الاستدلال، فيكون المراد من هذا القول لا نفس القول بل دلالة الدليل عليه على حسب مذاهب العرب في هذا كقول الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني

وأصدق دلالة منه قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾الروم: ٣٥ فجعل دلالة البرهان كلاماً، ومن الناس من قال: هذا الأمر كان بعد النبوة، وقوله: ﴿ أَسْلِمْ ﴾ ليس المراد منه الإسلام والإيمان بل أمور أخر. أحدها: الانقياد لأوامر الله تعالى، والمسارعة إلى تلقيها بالقبول، وترك الإعراض بالقلب واللسان، وهو المراد من قوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾البقرة: ١٢٨. وثانيها: قال الأصم: ﴿ أَسْلِمْ ﴾ أي أخلص عبادتك واجعلها سليمة من الشرك وملاحظة الأغيار. وثالثها: استقم على الإسلام واثبت على التوحيد كقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾محمد: ١٩. ورابعها: أن الإيمان صفة القلب والإسلام صفة الجوارح، وأن إبراهيم (عليه السلام) كان عارفاً بالله تعالى بقلبه وكلفه الله تعالى بعد ذلك بعمل الجوارح والأعضاء بقوله: ﴿ أَسْلِمْ ﴾.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

اعلم أن هذا هو النوع السادس من الأمور المستحسنة التي حكاها الله عن إبراهيم.

اعلم أن هذه الحكاية اشتملت على دقائق مرغبة في قبول الدين. أحدها: أنه تعالى لم يقل وأمر إبراهيم بنيه بل قال: وصاهم ولفظ الوصية أوكد من الأمر، لأن الوصية عند الخوف من الموت، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم، فإذا عرف أنه (عليه السلام) في ذلك الوقت كان مهتماً بهذا الأمر متشدداً فيه، كان القول إلى قبوله أقرب. وثانيها: أنه (عليه السلام) خصص بنيه بذلك، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم، فلما خصهم بذلك في آخر عمره، علمنا أن اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيره. وثالثها: أنه عمم بهذه الوصية جميع بنيه ولم يخص أحداً منهم بهذه الوصية، وذلك أيضاً يدل على شدة

الاهتمام. ورابعها: أنه (عليه السلام) أطلق هذه الوصية غير مقيدة بزمان معين ومكان معين، ثم زجرهم أبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين، وذلك يدل أيضاً على شدة الاهتمام بهذا الأمر. وخامسها: أنه (عليه السلام) ما مزج بهذه الوصية وصية أخرى، وهذا يدل أيضاً على شدة الاهتمال بهذا الأمر، ولما كان إبراهيم (عليه السلام) هو الرجل المشهود له بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة، ثم عرف أنه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر، عرف حينئذ أن هذا الأمر أولى الأمور بالاهتمام، وأجراها بالرعاية، فهذا هو السبب في أنه خص أهله وأبناءه بهذه الوصية، وإلاّ فمعلوم من حال إبراهيم (عليه السلام) أنه كان يدعو الكل أبداً إلى الإسلام والدين.

أما قوله: ﴿ وَيَعْقُوبُ ﴾ ففيه قولان: الأول: وهو الأشهر أنه معطوف على إبراهيم، والمعنى أنه وصى كوصية إبراهيم. والثاني: قرئ ﴿ وَيَعْقُوبُ ﴾ بالنصب عطفاً على بنيه، ومعناه: وصى إبراهيم بنيه، ونافلته يعقوب، أما قوله: ﴿ يَٰبَنِيَّ ﴾ فهو على إضمار القول عند البصريين، وعند الكوفيين يتعلق بوصى لأنه في معنى القول، وفي قراءة أبي وابن مسعود، أن يا بني.

أما قوله: ﴿ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾فالمراد أنه تعالى استخلصه بأن أقام عليه الدلائل الظاهرة الجلية ودعاكم إليه ومنعكم عن غيره.

أما قوله: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فالمراد بعثهم على الإسلام، وذلك لأن الرجل إذا لم يأمن الموت في كل طرفة عين، ثم إنه أمر بأن يأتي بالشيء قبل الموت صار مأموراً به في كل حال، لأنه يخشى إن لم يبادر إليه أن تعاجله المنية فيفوته الظفر بالنجاة ويخاف الهلاك فيصير مدخلاً نفسه في الخطر والغرور.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟

﴿ يَعۡمَلُونَ ١٣٤ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن إبراهيم (عليه السلام) أنه بالغ في وصية بنيه في الدين والإسلام، ذكر عقيبه أن يعقوب وصى بنيه بمثل ذلك تأكيداً للحجة على اليهود والنصارى، ومبالغة في البيان.

أما قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡ ﴾ فهو إشارة إلى من ذكرهم الله تعالى في الآية المتقدمة، وهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنوه الموحدون. و﴿الأُمّة﴾ الصنف. ﴿ خَلَتۡ ﴾ سلفت ومضت وانقرضت، والمعنى أني اقتصصت عليكم أخبارهم وما كانوا عليه من الإسلام والدعوة إلى الإسلام فليس لكم نفع في سيرتهم دون أن تفعلوا ما فعلوه، فإن أنتم فعلتم ذلك انتفعتم وإن أبيتم لم تنتفعوا بأفعالهم، والآية دالة على مسائل:

المسألة الأولى: الآية دالة على بطلان التقليد، لأن قوله: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ ﴾ يدل على أن كسب كل أحد يختص به ولا ينتفع به غيره، ولو كان التقليد جائزاً لكان كسب المتبوع نافعاً للتابع، فكأنه قال: إني ما ذكرت حكاية أحوالهم طلباً منكم أن تقلدوهم، ولكن لتنبهوا على ما يلزمكم فتستدلوا وتعلموا أن ما كانوا عليه من الملة هو الحق.

المسألة الثانية: الآية دالة على ترغيبهم في الإيمان، واتباع محمد (عليه الصلاة والسلام)، وتحذيرهم من مخالفته.

المسألة الثالثة: الآية دالة على أن الأبناء لا يثابون على طاعة الآباء بخلاف قول اليهود من أن صلاح آبائهم ينفعهم، وتحقيقه ما روي عنه (عليه السلام) أنه قال: «يا صفية عمة محمد، يا فاطمة بنت محمد، ائتوني يوم القيامة بأعمالكم لا بأنسابكم فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً». وقال «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». وقال الله تعالى: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ المؤمنون: ١٠١، وقال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ النساء: ١٢٣، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ﴾

الأنعام: ١٦٤ ، وقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾النور: ٥٤ .

المسألة الرابعة الآية تدل على بطلان قول من يقول الأبناء يعذبون بكفر آبائهم وكان اليهود يقولون إنهم يعذبون في النار لكفر آبائهم باتخاذ العجل وهو قوله تعالى﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾البقرة: ٨٠ وهي أيام عبادة العجل فبين الله تعالى بطلان ذلك.

ـ الطباطبائي:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى:﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾، الرغبة، إذا عدّيت بعن أفادت معنى الإعراض والنفرة، وإذا عدّيت بفي أفادت: معنى الشوق والميل، وسفه يأتي متعدياً ولازماً، ولذلك ذكر بعضهم أن قوله: نفسه مفعول لقوله: سفه، وذكر آخرون أنه تمييز لا مفعول، والمعنى على أي حال: أن الإعراض عن ملة إبراهيم من حماقة النفس، وعدم تمييزها ما ينفعها مما يضرها ومن هذه الآية يستفاد معنى ما ورد في الحديث أن العقل ما عبد به الرَّحْمنِ.

قوله تعالى:﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾، الاصطفاء أخذ صفوة الشيء وتمييزه عن غيره إذا اختلطا، وينطبق هذا المعنى بالنظر إلى مقامات الولاية على خلوص العبودية وهو أن يجري العبد في جميع شؤونه على ما يقتضيه مملوكيته وعبوديته

من التسليم الصرف لربه، وهو التحقق بالدين في جميع الشؤون فإن الدين لا يشتمل إلاّ على مواد العبودية في أمور الدنيا والآخرة وتسليم ما يرضيه الله لعبده في جميع أموره كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩ ، فظهر: أن مقام الاصطفاء هو مقام الإسلام بعينه ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الآية فإن الظاهر أن الظرف متعلق بقوله: اصطفيناه، فيكون المعنى أن إصطفائه إنما كان حين قال له ربه: أسلم، فأسلم لله رب العالمين فقوله تعالى:﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، بمنزله التفسير لقوله: اصطفيناه.

وفي الكلام التفات من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ ﴾، ولم يقل إذ قلنا له أسلم، والتفات آخر من الخطاب إلى الغيبة في المحكي من قول إبراهيم: ﴿ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، ولم يقل: قال أسلمت لك.

أما الأول، فالنكتة فيه: الإشارة إلى أنه كان سراً استسر به ربه إذ أسره إليه فيما خلى به معه فإن للسامع المخاطب اتصالاً بالمتكلم فإذا غاب المتكلم عن صفة حضوره انقطع المخاطب عن مقامه وكان بينه وبين ما للمتكلم من الشأن والقصة ستر مضروب، فأفاد: أن القصة من مسامرات الأُنس وخصائص الخلوة.

وأما الثاني: فلأن قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ ﴾، يفيد معنى الإختصاص باللطف والاسترسال في المسارة لكن أدب الحضور كان يقتضى من إبراهيم وهو عبد عليه طابع الذلة والتواضع أن لا يسترسل، ولا يعد نفسه مختصاً بكرامة القرب متشرفاً بحظيرة الإنس، بل يراها واحداً من العبيد الأذلاء المربوبين، فيسلم لرب يستكين إليه جميع العالمين فيقول: أسلمت لرب العالمين.

والإسلام والتسليم والاستسلام بمعنى واحد، من السلم، وأحد الشيئين إذا كان بالنسبة إلى الآخر بحال لا يعصيه ولا يدفعه فقد أسلم وسلم واستسلم له، قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾البقرة: ١١٢، وقال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ ﴾الأنعام: ٧٩

، ووجه الشيء ما يواجهك به، وهو بالنسبة إليه تعالى تمام وجود الشيء فإسلام الإنسان له تعالى هو وصف الانقياد والقبول منه لما يرد عليه من الله سبحانه من حكم تكويني، من قدر وقضاء، أو تشريعي من أمر أو نهى أو غير ذلك، ومن هنا كان له مراتب بحسب ترتب الواردات بمراتبها.

الأولى: من مراتب الإسلام، القبول لظواهر الأوامر والنواهي بتلقي الشهادتين لساناً، سواء وافقه القلب، أو خالفه، قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾الحجرات: ١٤ ، ويتعقب الإسلام بهذا المعنى أول مراتب الإيمان وهو الإذعان القلبي بمضمون الشهادتين إجمالاً ويلزمه العمل في غالب الفروع.

الثانيه: ما يلي الإيمان بالمرتبة الأولى، وهو التسليم والإنقياد القلبي لجل الاعتقادات الحقة التفصيلية وما يتبعها من الأعمال الصالحة وإن أمكن التخطي في بعض الموارد، قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾الزخرف: ٦٩ ، وقال أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾البقرة: ٢٠٨ ، فمن الإسلام ما يتأخر عن الإيمان محققاً فهو غير المرتبة الأولى من الإسلام ويتعقب هذا الإسلام المرتبة الثانية من الإيمان وهو الاعتقاد التفصيلي بالحقائق الدينية، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾الحجرات: ١٥ ، وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾الصف: ١١ ، وفيه إرشاد المؤمنين إلى الإيمان، فالإيمان غير الإيمان.

الثالثه: ما يلي الإيمان بالمرتبة الثانية فإن النفس إذا أنست بالإيمان المذكور وتخلقت بأخلاقه تمكنت منها وانقادت لها سائر القوى البهيمية والسبعية، وبالجملة القوى المائلة إلى هوسات الدنيا وزخارفها الفانية الداثرة، وصار الإنسان يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، ولم يجد في باطنه وسره ما لا ينقاد إلى أمره

ونهيه أو يسخط من قضائه وقدره، قال الله سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾النساء: ٦٥ ، ويتعقب هذه المرتبة من الإسلام المرتبة الثالثة من الإيمان، قال الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾المؤمنون: ٣ ، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾إلى غير ذلك، وربما عدت المرتبتان الثانية والثالثة مرتبة واحدة.

والأخلاق الفاضلة من الرضاء والتسليم، والحسبة والصبر في الله، وتمام الزهد والورع، والحب والبغض في الله من لوازم هذه مرتبة.

الرابعة: ما يلي المرتبة الثالثة من الإيمان فإن حال الإنسان، وهو في المرتبة السابقة مع ربه حال العبد المملوك مع مولاه، إذ كان قائماً بوظيفة عبوديته حق القيام، وهو التسليم الصرف لما يريده المولى أو يحبه ويرتضيه، والأمر في ملك رب العالمين لخلقة أعظم من ذلك وأعظم وإنه حقيقة الملك الذي لا استقلال دونه لشيء من الأشياء لا ذاتاً ولا صفة، ولا فعلاً على ما يليق بكبريائه جلت كبريائه.

فالإنسان ــ وهو في المرتبة السابقة من التسليم ــ ربما أخذته العناية الربانية فاشهدت له أن الملك لله وحده لا يملك شيء سواه لنفسه شيئاً إلاّ به لا رب سواه، وهذا معنى وهبي، وإفاضة إلهية لا تأثير لإرادة الإنسان فيه، ولعل قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ الآية، إشارة إلى هذه المرتبة من الإسلام فان قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الآية، ظاهره أنه أمر تشريعي لا تكويني، فإبراهيم كان مسلماً باختياره، إجابة لدعوة ربه وامتثالاً لأمره، وقد كان هذا من الأوامر المتوجهة إليه (عليه السلام) في مبادئ حاله، فسؤاله في أُواخر عمره مع ابنه إسماعيل الإسلام وإراءة المناسك سؤال لأمر ليس زمامه بيده أو سؤال لثبات على أمر ليس بيده فالإسلام المسؤول في الآية هو هذه المرتبة من الإسلام ويتعقب الإسلام بهذا المعنى المرتبة الرابعة من الإيمان وهو استيعاب هذا الحال لجميع الاحوال والأفعال، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ

﴿ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ يونس: ٦٢ - ٦٣ ، فإن هؤلاء المؤمنين المذكورين في الآية يجب أن يكونوا على يقين من أن لا استقلال لشيء دون الله، ولا تأثير لسبب إلاّ بإذن الله حتى لا يحزنوا من مكروه واقع، ولا يخافوا محذوراً محتملاً، وإلاّ فلا معنى لكونهم بحيث، لا يخوفهم شيء ولا يحزنهم أمر، فهذا النوع من الإيمان بعد الإسلام المذكور فافهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ البقرة: ١٣٠ ، الصلاح، وهو اللياقة بوجه ربما نسب في كلامه إلى عمل الإنسان وربما نسب إلى نفسه وذاته، قال تعالى: ﴿ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا ﴾ الكهف: ١١٠ ، وقال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ ﴾ النور: ٣٢ .

وصلاح العمل وإن لم يرد به تفسير بين من كلامه تعالى غير أنه نسب إليه من الآثار ما يتضح به معناه. فمنها: أنه صالح لوجه الله، قال تعالى: ﴿ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ ﴾ الرعد: ٢٢ ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٢٧٢ .

ومنها: أنه صالح لأن يثاب عليه، قال تعالى: ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ القصص: ٨٠ .

ومنها: أنه يرفع الكلم الطيب الصاعد إلى الله سبحانه قال تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾ فاطر: ١٠ ، فيستفاد من هذه الآثار المنسوبة إليه: أن صلاح العمل معنى تهيؤه ولياقته لان يلبس لباس الكرامة ويكون عوناً وممداً لصعود الكلام الطيب إليه تعالى، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ ﴾ الحج: ٣٧ ، وقال تعالى: ﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ الإسراء: ٢٠ ، فعطائه تعالى بمنزلة الصورة، وصلاح العمل بمنزله المادة.

وأما صلاح النفس والذات فقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ النساء: ٦٩ ، وقال تعالى: ﴿ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ

﴿ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾الأنبياء: ٨٦ ، وقال تعالى حكاية عن سليمان:﴿ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾النمل: ١٩ ، وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ـ إلى قوله ـ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، وليس المراد الصلاح لمطلق الرحمة العامة الإلهية الواسعة لكل شيء ولا الخاصة بالمؤمنين على ما يفيده قوله تعالى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾الأعراف: ١٥٦ ، إذ هؤلاء القوم وهم الصالحون، طائفة خاصة من المؤمنين المتقين، ومن الرحمة ما يختص ببعض دون بعض، قال تعالى: ﴿ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾البقرة: ١٠٥ ، وليس المراد أيضاً مطلق كرامة الولاية، وهو تولي الحق سبحانه أمر عبده، فإن الصالحين وإن شرفوا بذلك وكانوا من الأولياء المكرمين على ما بيّناه سابقاً في قوله تعالى:﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾الفاتحة: ٦ ، وسيجيء في تفسير الآية لكن هذه أعني الولاية صفة مشتركة بينهم وبين النبيين، والصديقين، والشهداء فلا يستقيم إذن عدهم طائفة خاصة في قبالهم.

نعم الأثر الخاص بالصلاح هو الادخال في الرحمة، وهو الأمن العام من العذاب كما ورد المعنيان معاً في الجنة، قال تعالى: ﴿ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦ ﴾الجاثية: ٣٠، أي في الجنة، وقال تعالى: ﴿ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾الدخان: ٥٥ ، أي في الجنة.

وأنت إذا تدبرت قوله تعالى: ﴿ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ ﴾ الأنبياء: ٧٥ ، وقوله:﴿ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴾الأنبياء: ٧٢ ، حيث نسب الفعل إلى نفسه تعالى لا إلى العبد ـ ثم تأمّلت أنه تعالى قصر الأجر والشكر على ما بحذاء العمل والسعي قضيت بأن الصلاح الذاتي كرامة ليست بحذاء العمل والإرادة وربما تبيّن به معنى قوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ق: ٣٥ ـ وهو ما بالعمل - وقوله: وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴾ ـ وهو أمر غير ما بالعمل على ما سيجيء بيانه إن شاء الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ق: ٣٥. ثم إنك إذا تأملت حال إبراهيم ومكانته في أنه كان نبياً مرسلاً وأحد أُولي العزم من الأنبياء، وأنه إمام، وأنه مقتدى عدة ممن بعده من الأنبياء

والمرسلين وأنه من الصالحين بنص قوله تعالى:﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾الأنبياء: ٧٢، الظاهر في الصلاح المعجل على أن من هو دونه في الفضل من الأنبياء أكرم بهذا الصلاح المعجل وهو (عليه السلام) مع ذلك كله يسأل اللحوق بالصالحين الظاهر في أن هناك قوماً من الصالحين سبقوه وهو يسال اللحوق بهم فيما سبقوه إليه، وأجيب بذلك في الآخرة كما يحكيه الله تعالى في ثلاثة مواضع من كلامه حيث قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ البقرة/١٣٠ ، وقال تعالى:﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾العنكبوت: ٢٧

وقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ النحل: ١٢٢ ، فإذا تأمّلت ذلك حق التأمل قضيت بأن الصلاح ذو مراتب بعضها فوق بعض ولم تستبعد لو قرع سمعك أن إبراهيم (عليه السلام) سأل اللحوق بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله الطاهرين (عليه السلام) فاجيب إلى ذلك في الآخرة لا في الدنيا فإنه (عليه السلام) يسأل اللحوق بالصالحين ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعيه لنفسه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾الأعراف: ١٩٦ فإن ظاهر الآية أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعي لنفسه الولاية فالظاهر منه أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو المتحقق بالصلاح الذي يدعيه بموجب الآية لنفسه وإبراهيم كان يسأل الله اللحوق بعده من الصالحين يسبقونه في الصلاح فهو هو.

قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ ﴾، أي وصى بالملة.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ ﴾، النهي عن الموت وهو أمر غير اختياري للإنسان، والتكليف إنما يتعلق بأمر اختياري إنما هو لرجوعه إلى أمر يتعلق بالاختيار، والتقدير احذروا أن يغتالكم الموت في غير حال الإسلام، أي داوموا وألزموا الإسلام لئلا يقع موتكم إلاّ في هذا الحال، وفي الآية إشارة إلى أن الدين هو الإسلام كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩ .

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾، في الكلام إطلاق

لفظ الأب على الجد والعم والوالد من غير مصحح للتغليب، وحجة فيما سيأتي إن شاء الله تعالى في خطاب إبراهيم لآزر بالأب.

قوله تعالى:﴿ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾، في هذا الإيجاز بعد الإطناب بقوله: ﴿إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾ (إلخ) دفع لإمكان إبهام اللفظ أن يكون إلهه غير إله آبائه على نحو ما يتخذه الوثنيون من الآلهة الكثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾، بيان للعبادة وأنها ليست عبادة كيفما اتفقت بل عبادة على نهج الإسلام، وفي الكلام جملة أن دين إبراهيم هو الإسلام والموروث منه في بني إبراهيم كإسحق ويعقوب وإسماعيل، وفي بني إسرائيل، وفي بني إسماعيل من آل إبراهيم جميعاً هو الإسلام لا غير، وهو الذي أتى به إبراهيم من ربه فلا حجة لأحد في تركه والدعوة إلى غيره.

في الكافي عن سماعة عن الصادق (عليه السلام) الإيمان من الإسلام بمنزلة الكعبة الحرام من الحرم قد يكون في الحرم ولا يكون في الكعبة ولا يكون في الكعبة حتى يكون في الحرم.

وفيه عن سماعة أيضاً عن الصادق (عليه السلام) قال: الإسلام شهادة أن لا إله إلاّ الله والتصديق برسول الله، به حقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث وعلى ظاهره جماعة الناس، والإيمان الهدى وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام.

أقول: وفي هذا المضمون روايات أُخر وهي تدل على ما مرّ بيانه من المرتبة الأولى من الإسلام والإيمان.

وفيه عن البرقي عن علي (عليه السلام): قال الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، وفيه عن كاهل عن الصادق لو أن قوماً عبدوا الله - وحده لا شريك له - وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة، وحجوا البيت، وصاموا شهر رمضان ثم قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه رسول الله ألا صنع بخلاف الذي صنع أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين الحديث.

أقول: والحديثان يشيران إلى المرتبة الثالثة من الإسلام والإيمان.

وفي البحار عن إرشاد الديلمي - وذكر سندين لهذا الحديث، وهو من أحاديث المعراج - وفيه: قال الله سبحانه: يا أحمد هل تدري أي عيش أهني وأي حياة أبقي؟ قال: اللهم لا، قال: أما العيش الهنيء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري ولا ينسى نعمتي، ولا يجهل حقي، يطلب رضائي في ليله ونهاره، وأما الحياة الباقية، فهي التى يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا، وتصغر في عينه، وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه ويبتغي مرضاتي، ويعظم حق نعمتي، ويذكر عملي به، ويراقبني بالليل والنهار عند كل سيئة أو معصية، وينقي قلبه عن كل ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حباً حتى أجعل قلبه وفراغه واشتغاله وهمه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي وأفتح عين قلبه وسمعه، حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي، وأضيق عليه الدنيا، وابغض إليه ما فيها من اللذات، واحذره من الدنيا وما فيها كما يحذر الراعي على غنمه مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا يفر من الناس فراراً، وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن، يا أحمد ولأزينه بالهيبة والعظمة فهذا هو العيش الهنيء والحياة الباقية، وهذا مقام الراضين فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال أعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته وأفتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أخفى عليه خاصة خلقي وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار، حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين، ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي وأعرفه السر الذي سترته عن خلقي، وألبسه الحياء، حتى يستحيي منه الخلق كلهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له، واجعل قلبه واعياً وبصيراً ولا أخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار، وأعرفه ما يمر على الناس في القيمة من الهول والشدة وما أحاسب به الأغنياء والفقراء والجهال والعلماء، وأنومه في قبره، وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه، ولا يرى غم الموت، وظلمة القبر واللحد، وهول المطلع، ثم أنصب له ميزانه، وأنشر ديوانه، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرأه

منشوراً، ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً فهذه صفات المحبين، يا أحمد اجعل همَّك هماً واحداً واجعل لسانك لساناً واحداً واجعل بدنك حياً لا يغفل ابداً من يغفل عني لم أبال في أي واد هلك.

وفي البحار عن الكافي والمعاني ونوادر الراوندي بأسانيد مختلفة عن الصادق والكاظم (عليهما السلام) ــ واللفظ المنقول هيهُنا للكافي ــ قال: استقبل رسول الله: حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري فقال له: كيف أنت يا حارثة بن مالك النعماني؟ فقال: يا رسول الله مؤمن حقاً، فقال له رسول الله: لكل شيء حقيقة فما حقيقة قولك؟ فقال يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت هواجرى، وكأني أنظر إلى عرش ربي وقد وضع للحساب، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة وكأني أسمع عواء أهل النار في النار، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): عبد نور الله قلبه أبصرت فأثبت.

أقول: والروايتان تحومان حوم المرتبة الرابعة من الإسلام والإيمان المذكورتين وفي خصوصيات معناهما روايات كثيرة متفرقة سنورد جملة منها في تضاعيف الكتاب إن شاء الله تعالى، والآيات تؤيدها على ما سيجيء بيانها، واعلم ان لكل مرتبة من مراتب الإسلام والإيمان معنى من الكفر والشرك يقابله، ومن المعلوم أيضاً أن الإسلام والإيمان كلما دق معناهما ولطف مسلكهما، صعب التخلص مما يقابلهما من معنى الكفر أو الشرك، ومن المعلوم أيضاً أن كل مرتبة من مراتب الإسلام والإيمان الدانية، لا ينافي الكفر أو الشرك من المرتبة العالية، وظهور آثارهما فيها، وهذان أصلان.

ويتفرع عليهما: أن للآيات القرآنية بواطن تنطبق على موارد لا تنطبق عليها ظواهرها وليكن هذا عندك على إجماله حتى يأتيك تفصيله.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، قال (عليه السلام) النظر إلى رحمة الله.

وفي المجمع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

اقول: والروايتان قد اتضح معناهما عند بيان معنى الصلاح، والله الهادي.

وفي تفسير العيّاشي في قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾ الآية، عن الباقر (عليه السلام) أنها جرت في القائم.

أقول: قال في الصافي: لعل مراده أنها في قائم آل محمد فكل قائم منهم يقول: ذلك حين موته لبنيه، ويجيبونه بما أجابوا به.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول:

أيضاً ولله الحمد، الإجماع واضح بين المفسرين حول معاني الآيات في هذه الفقرة مع شبه إجماع حول مسألة جعل إسماعيل (ع) بمثابة الأب بينما هو في الحقيقة عم.

وبموضوعية نقول إن التميّز في هذه الفقرة أيضاً كان من نصيب العلامة الطباطبائي جزاه الله خير الجزاء كما باقي العلماء.